بيتهوفن

سميتانا

obeikandl.com

الموسيقيان الأصمان

حينما يفقد المطرب صوته أو الموسيقى حاسة السمع أو الرسام يده التى تمسك الفرشاة.. فتلك كارثة كبرى على نفسية صاحبها..

إن صاحب هذه المحنة أمامه أحد أمرين: إما أن يستسلم لها ويطويه الزمان فى مقبرة النسيان.. وإما أن يقاوم ويتحدى أحلامه برغم مما يعانيه من آلام.. فيكتب فى صفحات الفخر والتقدير.

وأمامنا موسيقيان تتشابه ظروفهما المؤلمة..

فكلاهما أصيب بالصمم وفقد حاسته التى تشعر بالنغم.. وتميز بين الأصوات والألحان..

لكن كليهما أيضاً لم يستسلم ولم يستجب لقهر الألم وإنما كتب مجده الموسيقى برغم كل شئ.

بيتهوفن

ولد فى عام ١٧٧٠م فى بلدة بون الألمانية لأب اتخذ الموسيقى صنعة له.. وكان يحلم أن يكون ولده فى منزلة موتسارت العظيم.

ولم يكن والده يتمني ذلك بقصد أن يكون ولده عبقرياً فى الفن.. بقدر ما كان حريصاً على أن يكسب من ورائه ما يسد ثمن ما يحتسيه من الخمر!.

وبرغم ذلك فقد تعلق بيتهوفن بفنه الجميل.. وسلمه أبوه وهو فى التاسعة من عمره إلى أحد المعلمين الكبار فى الموسيقى يعمل فى بلاط أمير كولونيا.. وأتاح له ذلك أن يكون عازفاً فى القصر.

لكن طموح الصغير جعله يرحل إلى فيينا فى السابعة عشرة من عمره ليستزيد من العلم والمعرفة.. وهيأت له أسرة بروينج المجال للاطلاع فى مكتبتها بما يشبع فهمه.. ونشأت بين بيتهوفن وأسرة بروينج صداقة قوية.

وفى عام ١٧٩٢م مر الموسيقار العظيم هايدن ببون فاحتفلت به الأوساط الفنية.. وأسرع بيتهوفن ليعرض عليه موسيقاه فيعجب به ويتنبأ له بمستقبل باهر فى التأليف الموسيقى.. ونصحه بأن يستكمل دراسته بفيينا مهد الكلاسيكية.

ويخصص له الأمير جناحاً فى قصره ومبلغاً شهريا يساعده على استكمال ثقافته الموسيقية.

ويبتسم له الحظ، ليألف الموسيقى ويقودها بنفسه.. فتنهال عليه الدعوات للعزف فى الحفلات الموسيقية.

ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره – فى قمة شهرته الفنية – حتى أخذ الصمم طريقه إلى أذنيه.. لكنه أخذ يخفى هذه المحنة على الناس زمناً طويلاً ويستمر فى تأليفه أجمل وأعظم أعماله الفنية.

وتزيد عليه العلة تدريجيا حتى صار كامل الصمم وهو فى الخامسة والأربعين من عمره.. وصار لا يسمع إلا ضوضاء داخل أذنيه.

وفى عام ١٨١٥م اعتزل بيتهوفن الناس.. وساءت حالته المالية ومرض بالتهاب رئوي فلازم الفراش.. حتى وفاته فى ٢٦ مارس عام ١٨٢٧م.

كان بيتهوفن ذا نفس أبية.. ولم تكن حياة القصور تستطيع أن تلونه أو تغير مذهبه فى الحياة.. ذلك المذهب الذى يمسك به طوال

حياتـه والـذى كان يعتقـد بـه أن النـاس سواسـية لا فـرق بـين أمـير وفقـير.

ويحكـى أنـه دعـي ذات ليلـة إلى حفلـة يقيمـه أحـد الأمـراء.. بعـد أن عـزف علـى البيانـو وأدهـش الحضـور بعزفـه.. سـأله الأمـير فـى اسـتخفاف: لقـد عزفـت البيانـو عزفـاً جيـداً.. فهـل تسـتطيع أن تعـزف الكمـان؟.. وهنـا نظـر بيتهوفـن إلى الأمـير نظـرة لهـا معنـى.. وانصـرف مـن الحفـل فـى صمـت ودون تعليـق.

وفى اليوم التالي أرسل إلى الأمير يقول:

"لقـد أصبحـت أميـراً بمحـض الصدفـة والوراثة..أمـا أنـا فمديـن بمركـزي لنفسـي.. إن العـالم زاخـر بالأمـراء.. لكنـه ليـس فيـه إلا بيتهوفـن واحـداً".

هـذا هـو لودفـج فـان بيتهوفـن ذلـك الموسـيقى العبقـري الـذى تحـدى صممـه وأخـذ يؤلـف موسـيقاه بصـبر وإرادة قويـة..

قـال عنـه فيكتـور هوجـو: "لئـن فاخـرت إنجلـتراً بشـاعرها شكسـبير.. وباهـت فرنسـا ببطلهـا نابليـون.. وطاولـت إيطاليـا بكاتبهـا دانـتي.. فـإن هـؤلاء جميعـاً يتضاءلـون أمـام عبقريـة بيتهوفـن.

سميتانا

هو نموذج لا يقل إرادة عن بيتهوفن

فقد ولد فى الثاني من مارس عام ١٨٢٤م وسماه أبوه فريدريك، وسعدت الأسرة به لأنه جاء بعد خمس بنات رزق بهن أبوه.. استشف أبوه منذ صغره حبه للموسيقى فأسرع به إلى معلم الكمان فى براج (تشيكوسلوفاكيا) أنطون شميليك.. فرعاه وعلمه.. وأعجب بنبوغه وعبقريته المتوثبة.

ولم يفت المعلم أن يسجل للصغير صاحب الخمس سنوات أولى مؤلفاته الموسيقية.

وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٨٣٠م أقيم مهرجان كبير بمناسبة تعميد القيصر فرانس الثاني، ويقدم سميتانا الصغير عزفه على الكمان.. وكان مفاجأة للحضور.. ثم يعزف على البيانو افتتاحية أوبرا للموسيقى أوبير فيدهش الحضور كذلك.

ويتاح لفريدريك تعلم الألمانية وآدابها.. وينال ثقافة رفيعة فى الموسيقى على أيدي معلمين كثيرين.

لكن أباه – وقد لاحظ انحياز ولده إلى الموسيقى – كان حريصاً على أن يواصل ولده تعليمه أولاً.

لكن فريدريك كان يريد أن يستزيد من معلوماته حراً.. غير مقيد بحجرات الدراسة ولوائح المدرسة.

وهنا بدأت حرب بلا هوادة مع والده.

وها هو فريدريك يلتحق بالمدرسة ويرسب دائما.. لكنه يتفوق فى الموسيقى ويشتهر.. والأب لا يعجبه ذلك ويحتج ويطالبه بالاستمرار فى الدراسة فيلتحق فى براج بالمدرسة الثانوية.. ويلتقي هناك بثلاثة من الطلاب يهتمون مثله بالموسيقى.. فيكون معهم رباعياً موسيقياً للعزف.. لا رباعي مذاكرة وتحصيل دراسي..

ويعلم الوالد بما آل إليه حال ولده وانقطاعه عن الدراسة.. فصمم على استدعائه إلى المنزل وأن تكون الزراعة حرفته الأخيرة مدى الحياة ويتدخل ابن عمه لدى والده.. ويعده بمراقبته فى الدراسة.

واستطاع بصعوبة أن ينهي دراسته الثانوية.. فزالت بذلك الكآبة التى كان يستشعرها من عدم رضا أبيه عنه.

وفى يوليو ١٨٤٣م اشترك فى حفل موسيقى كبير.. وتحدث الناس عن الموسيقى الشاب ولاقى كل إعجاب وترحيب.

وكان قد تعرف على فتاة من أسرة راقية تسمى كاتارينا وكانت محبة للموسيقى وتعزف البيانو.

وتنشأ علاقة حب بينهما تنتهي بالزواج.

بدأ يخطط لمستقبله الفني بعد أن حلت المشكلة بينه وبين والده.. لكنه كان يؤمن نفسه مادياً بالكاد.. تلك كانت صعوبة تقابله دائما.. ففي عام ١٨٤٨م أعلن فريدريك عن افتتاح مدرسة أولية للموسيقى.. تشمل العلوم النظرية والتأليف الموسيقى وعلوم الهارموني إلى غير ذلك من العلوم والدراسات العليا.

وكانت فكرة جيدة.. فسرعان ما أقبل على المدرسة طلاب كثيرون.. وأمن بذلك حياته المادية.

وكان كلماً ألف شيئاً جديداً أهدي الفنانين نسخة منه ليتلقي أحكامهم.. فمنهم من يثني عليه.. ومنهم من يحقد عليه وينتقده نقداً لاذعاً.. لكنه لم يتوقف عن التأليف برغم كل شئ.

ثم تحل عليه محنة شخصية مفجعة.. حيث يختطف الموت ثلاثاً من أبنائه فى عمر الزهور.. ولم ينجُ من الموت سوى ابنة رابعة هى صوفي.. التى قدر لها أن تتزوج فى حياة والدها.

ويدرك فريدريك عامه الخمسين فيصاب بالصمم.. ولا يبقي فى أذنيه سوى ذلك الأزيز القوي الذى يحسه فى رأسه كهدير الماء الشديد.

ويحـاول عـلاج هـذا المـرض اللعـين بـلا جـدوى.. ويتفـق الأطباء على أن مرضه ليس من تلك الأمراض الشـائعة فى الأذن.. وإنمـا هـو شئ آخـر ربمـا يكـون شـللاً فـى الأعصـاب والقوقعـة.

وقـرر أن يواجـه مصـيره حتـى آخـر لحظـة مـن حياتـه.. ويتحتمـل دون أن يتـألم.. ويواصـل عملـه العظيـم فـى الموسـيقى.

انقطـع بعـد إصابتـه بالصمـم إلى التأليـف الأوركسـترالي بعيـداً عـن الغنـاء علـى الرغـم مـن صممـه الكامـل.

ويبلـغ سميتانـا فـى ذلـك التأليـف القمـة.. وقـد كان الحاقـدون عليـه يتمنـون أن يكـف عـن النشـاط بعـد إصابتـه بالصمـم.. لكنـه لم يفعـل.. وظـل حتـى آخـر رمـق مـن حياتـه يعـزف ألحانـه الجميلـة.

وكان عيـداً قوميـاً يـوم افتتـاح المسـرح القومـي التشـيكي فـى الحـادي عشـر مـن يونيـه عـام ١٨٨١م وجـري فيـه تكريـم الفنـان فريدريـك سميتانـا بحضـور ولـي عهـد النمسـا والمجـر.

وجلـس فريدريـك فـى مقصـورة مديـر المسـرح يرقـب مؤلفاتـه تـؤدي علـى المسـرح وهـو لا يسـمع مـن نغماتهـا شـيئاً.. وأقبـل عليـه ولـي العهـد يقبلـه ويهنئـه علـى عبقريتـه.

وفـى منتصـف نوفمـبر عـام ١٨٨٢م فقد النطق تمامـاً، وعجز عـن ربـط أفـكاره.. وضاعـت ذاكرتـه، وأصبـح عاجـزاً حتـى عـن القـراءة.. وتـوفي فـى مستشـفى الأمـراض العقلية فى مايـو ١٨٨٤م

★★★ ★★★

وهكـذا يخلـد بيتهوفـن وسميتانـا فـى أعمالهمـا الرائعـة وتاريخهمـا المجيـد، كمـا يخلـدان رمزيـن لـلإرادة القويـة والتحـدي.. وحـب الحيـاة.

obeikandl.com